إشكالية التنظير والإجراء في النّقد الجزائري المعـاصر

-مقدمة في السّيميائيّة السرديّة- لـ"رشيد بن مالك" أنموذجا

The problem of endoscopy and procedure in the algerian criticism-Introduction to narrative toxicity - by Rachid Ben Malek

حاجي عبد الرزاق♦

أ. د بلقاسم هواري ♦

تاريخ الإرسال: 2021/08/09	تاريخ القبول: 2021/08/03	تاريخ النشر: 2021/12/20

الملخص:

هدفت هذه الورقة البحثية إلى التنقيب في المشهد النقدي الجزائري المعاصر وتلقفه للمقولات النقدية الغربية تنظيراً و ممارسةً. فتفاعل الناقد الجزائري مع المعرفة الغربية الوافدة إليه محاولاً استثمارها بما يخدم نقده ويكون شخصية نقدية على قدرٍ كبير من الكفاءة والدينامية والوعي النقدي الذي يبرّر به الناقد استخدامه لمنهج دون الآخر من خلال فهم الخلفيات الفلسفية والمنطلقات النظرية التي يستمد منها المنهج أدواته الإجرائية، بالارتكاز على أسماء نقدية مثلت المشهد النقدي الجزائري المعاصر من بينها الأستاذ رشيد بن مالك و بحثه الموسوم ب: "مقدمة في السيميائية السردية" كونه نموذجا يخدم ما تذهب إليه هذه الورقة البحثية.

الكلمات المفتاحية: النقد الجزائري المعاصر، التنظير، الإجراء، الوعي النقدي، رشيد بن مالك.

المؤلف المرسل: حاجي عبد الرزاق hadji.abderrezak@edu.univ-oran1.dz

♦ جامعة أحمد بن بلة وهران1/ مخبر السيميائيات وتحليل الخطابات hadji.abderrezak@edu.univ_oran1.dz

♦ جامعة أحمد بن بلة وهران1/houaribelkavem00@yahoo.fr

Abstract:

This paper looks into the Algerian contemporary critical landscape and its theoretical and practical reception of Western critical schools. The Algerian critic interacts with Western knowledge in a pertinent investment, wherein a critical persona whose high competence, dynamism, and critical awareness justify the recourse to one approach at the expense of another is formed. An adequate understanding of the approach's philosophical backgrounds and theoretical premises is needed. Rachid Ben Malek is an Algerian figure that really represents the contemporary criticism and his research: "Introduction to narrative semiotics" serves paper's orientations.

***Key words**:Contemporary Algerian Criticism, Theory, Procedure, Critical Awareness, Rachid Ben Malek*

*** *** ***

توطئة :

مع بداية الثمانينيات من القرن الماضي وجد الناقد الجزائري نفسه أمام سيل من النظريات غربيَة المنشأ وفي ظل هذا التراكم راح يحاول التأسيس لنقده وتجديد منظومته النقدية والفكرية متجاوزاً الانطباعية والآراء الفردية، وإذا كانت التجارب النقدية الناجعة تقوم على مرتكزين اثنين: نظري يتأسس على المرجعيات الفلسفية والفكرية للنظرية والمنهج وتطبيقي يعمل على استثمار المحمول المعرفي وإسقاطه على النصَ الأدبي إجراءً وممارسةً، لذا فالإشكال الرئيس للبحث هو:

ما مدى قدرة النَقد الجزائري على استقبال واستيعاب النموذج الغربي؟ وهل كان للناقد الجزائري وعيَ نقدي مَكنه من اجتناب مزالق الممارسة العرجاء؟ وما مِقدار وعيهم النقدي أثناء تمثُل أطروحات النقد الغربي تنظيراً وإجراءً ؟ وكيف تمثل الناقد "رشيد بن مالك" الخطاب السيميائي السردي؟

نُحاول من خلال هذا البحث الإجابة عن الأسئلة السالفة الذكر وذلك من خلال النظر في تلك العلاقة التي تربط الناقد بنصَه الأدبي من خلال الأهداف الأتية :

-تحديد مدى أهمية الأصول الفلسفية والمنطلقات النظرية على الممارسة النقدية الناجعة.

- تحديد أهم الإشكالات التي واجهت التجربة النقدية الجزائرية المعاصرة.

- تبيان تجربة الناقد "رشيد بن مالك" في التأسيس والتأصيل للسيمياء السَردية في النَقد الجزائري

1/سؤال النظرية والوعي النقدي :

يُعد التنظير من أهم الممارسات التي ترافق النقد وتقترن به لأنه يشكل العملية الإدراكية في وعي الناقد للممارسة النقدية السليمة وعليه فإن سؤال النظرية من أهم الأسئلة التي يجب أن تسأل باعتبارها طرفا فاعلا في المشهد النقدي برمته.

النظرية مصطلح حديث ارتبط بالعلوم المختلفة وهذا يعني خلو معاجمنا العربية القديمة منه و ما تم العثور عليه هو مصطلح "النظر" أو " نظرت إذا رأيته وتدبرته ونظرت في كذا تأملته ، ونظرت في الأمر ،أحتمل أن يكون تفكرا وتدبرا، النظر البحث وهو أعم من القياس لأن كل قياس نظر وليس كل نظر قياس"[1]

أما معجم المصطلحات الفلسفية فيعرف مصطلح النظرية بأنه" بناء عقلي متكامل سواء في العلوم أو في الفلسفة والنظر يقابله العمل ، والمعرفة النظرية تقابلها المعرفة العلمية والتطبيقية والاختيارية ،كما تقابلها أيضا بعض معانيها المعرفة اليقينية وكذلك المعرفة الجزئية ، باعتبار أن المعرفة النظرية تتناول المبادئ والكليات دون الجزئيات"[2].

أما عند الغرب فيعرفها معجم "لاروس" النظرية هي : " مجموعة من المفاهيم المنهجية المنظمة حول موضوع محدد في العلوم التجريبية "[3]

فأغرقت الساحة النقدية العربية والجزائرية بسيل جارف من المفاهيم والمصطلحات هذه الأخيرة التي تقوم على وعاء فلسفي فالأسس الفلسفية هي أساس النظرية ودعامتها وهذا الطبيعي والمفترض، أما بالنسبة لنقدنا العربي والجزائري فالأمر هنا يختلف بعض الشيء فنقادنا قاموا ببتر هذه المصطلحات عن تربتها الفلسفية ، فقصرت وعجزت عن أداء وظيفتها "ولعل أحد أهم أسباب هذا الإخفاق يكمن في طريقة تعاطي هذا الخطاب النقدي مع النظريات المتنوعة الجذور والمتشابكة الأسس ، حيث إنه كثيرا ما يكتفي الناقد سواء أفي ممارسته التطبيقية أم في عروضه النظرية بنقل المصطلح أو المفهوم مفصولا عن سياقه الفكري وعاريا من أي غطاء فلسفي فالنظريات قبل أن تكون مصطلحات ومفاهيم معزولة هي أسس فلسفية وأصول نظرية تجسد وعيا حضاريا معينا ".[4]

فالنقد الجزائري والعربي على العموم لم يواكب الحاضر الغربي بل عاش حاضره هو على الماضي الغربي نظرا للفجوة الزمنية أثناء عملية التلقي فوقع نوع من الخلط المنهجي في عملية الاستقبال والممارسة "المشكل الحقيقي ليس في هل نحن مع استلهام النظريات

والمناهج الغربية الجديدة أم ضده (...) ولكنهُ يكمن في المنظور الذي يحكم علاقتنا بهذه المستجدات النظرية أو تلك الممارسات "[5]

فالناقد الأدبي هنا مُطالب باستخراج القواعد واستنطاق النصوص الإبداعية دون الخروج عن سِياج واقعنا ومحيطنا الثقافي وبالتالي المساهمة في خلق نظرية عربية تزاحم قريناتها من النظريات الأخرى وتخلق نوعاً من الخصوصية والتفرد ولا يتأتى ذلك دون مرجعية فلسفية وفكرية " هدفنا ليس الحديث عن علاقة الأدب بالفلسفة، وإنما لإبراز دور النظرية في المجال النقدي ، فإننا نكتفي بالإشارة إلى أن أية نظرية نقدية لابد أن تكون لها دعامة فلسفية تسندها . وكل عمل نقدي يمثل –في حقيقته – جزءا من موقف نظري شامل للناقد"[6]، فالنَقد المُنهج هو الذي يرتكز على نظرية نقدية تكون بمثابة دعامة للكشف عن كينونة النصوص وأداة في يد الناقد وعليه فالنَاقد الذي يفتقر إلى هذه الأسس لا يغدوا إلا أن يكون ناقدا انطباعيا.

فمكمن الدَاء هو كيفية التعامل مع نظريات الآخر ومناهجه وهل تتناسب مع نُصوصنا الإبداعية تراثيةً كانت أم حداثية ،فأظنُ أننا نحتاج إلى منهج لاختيار المنهج وإلى وعي نقدي ومعرفي كي لا نقع في فخ الاجترار والتسليم لكل ما يأتي من الآخر ولكن للأسف حاضر النقد الجزائري وحتى ماضيه القريب يُنبئ بأننا كنا مجرد مستهلك والأمر صِنوان في كل المجالات ولا يقتصر على الأدب ونقده فقط.

لهذا يذهب بعض النُقاد إلى أن مسألة خطاب التنظير لم يتجاوز بعدُ مرحلة الشرح والتفسير " لابدَ من الإشارة في هذا الإطار إلى أن استعمالنا لكلمة "التنظير" في تصنيف أحد خطابات التجربة النقدية المغاربية المعاصرة يتم بكثير من التجاوز هنا .ذلك لأن النقاد والدارسين العرب بصفة عامة – في الوقت الراهن على الأقل هم شُراح ومفسرون ومترجمون لا منظرون "[7] فالدراسات النقدية التنظيرية عندنا لاتزال محدودة ولا تعكس طموحات الناقد في بناء نظرية نقدية ولا واقع القارئ الحضاري والثقافي.

لذا فالحديث عن مشروع النقد التنظيري في نظر الناقد المغربي "محمد الدَغمومي" يتطلب الشروط التالية:

1-الانطلاق من الواقع العربي المعاصر

2-مراعاة تراث الأمة وتطلعاتها

3-الأخذ في الحسبان أيضاً المناخ الأدبي العالمي المعاصر".[8]

فعملية التأسيس النظري يجب أن تنطلق من الواقع الثقافي والحضاري فالناقد العربي يجب عليه أن يتعدى وظيفة الشرح والعرض أو اقتراح تصورات للعملية النقدية فارغة من محتواها وكأنها قوالب جاهزة ونحن لا نستسهل العملية ولكنها ضرورة ملحة.

ونحن نتحدث عن التأسيس لا ننكر جهود بعض النقاد البارزين في الساحة النقدية الجزائرية والمغاربية لجهودهم المضنية في عملية التأسيس أمثال: عبد المالك مرتاض ،عبد الحميد بورايو، رشيد بن مالك، أحمد يوسف وغيرهم كثير، فبورايو مثلاً كان همه التأسيس والتأصيل من خلال فهم النظرية واستيعابها بما يخدم نصه ويظهر ذلك في مؤلفه منطق السرد (دراسات في القصة الجزائرية الحديثة) الصادر عن ديوان المطبوعات الجامعية –الجزائر 1994 فهو إنجاز بارز في التأسيس والتأصيل فالقسم الأول نظري ويشمل:

-نحو منهج لدراسة النص الأدبي

-الإبداع الأدبي والتراث

-أزمة تدريس نصوص الأدب العربي في المؤسسات التعليمية

-البنية التركيبية للقصة

وكأنه من خلال هذه المباحث يقرأ أفكار الناقد المغربي "محمد الدَغمومي" في شروط النظرية من خلال المنهج والعلاقة بين التراث والإبداع وغيرها من النقاط المهمة في الدرس النقدي فالناقد عبد الحميد بورايو من الباحثين الأوائل الذين كرسوا جهودهم لتحديد آليات مقاربة النص السردي بصفة خاصة وتجديدها عبر إدخال النظريات الغربية إلى ساحتنا النقدية وبخاصة السيميائية منها ،فهو يكيف المنهج وفق ما تقتضيه طبيعة النص، والتنوع النصوصي في مشواره النقدي دليل على ذلك خصوصاً في قضية التحليل الوظائفي عند "بروب" ويحسب له أن من الأوائل الذين اجتهدوا كثيرا من أجل التأسيس لرؤية نقدية تفيد من الغرب دون الارتباط به ارتباط السذج العميان .

إن التأسيس لمشهد نقدي فعال يستطيع مجاراة الآخر لابدَ له من فهم قضية التراث وفهم أبعادها ووظيفتها داخل العملية النقدية برمتها، فالناقد الذي يطمئن للوافد اطمئنان

الأعمى المتواكل لا ننتظر من تجربته الكثير وحتماً علاقته بالتراث يشوبها النقص وعدم الفهم فالتراث بوصلة التجربة النقدية السليمة.

وبالتالي لا مناص من العودة إلى التراث النقدي وقراءته قراءة جادة لاستيعاب مضامينه من أجل الخروج بنتائج تفضي إلى كيفية التعامل مع المدِ الحداثي ، ولعل أبرز الأسماء التي دافعت عن التراث الناقد "عبد المالك مرتاض" فرغم دعوته إلى الانفتاح والنهل من الغرب سواء أثناء مرحلة التكوين أو الممارسة فإنه ظلَ وفياً لثقافته الأصيلة فهو يواكب الحداثة ولكن لا ينسى تراثه، و من مخرجات ذلك أنه أوجد لنفسه مصطلحات نقدية جديدة وتجاوز المفاهيم القديمة، فهو من أوائل النقاد الذين استخدموا جهازا مصطلحيا خاصا به مثل القراءة بدل النقد، السيمائيات والتقويض بدل التفكيك والتشريح بدل التحليل ..الخ فهو يدرك تمام الإدراك التفاوت الثقافي والمعرفي بيننا وبين الغرب.

فالهاجس المعرفي عنده يتمثل في مقدرة الناقد على تناول التراث باستراتيجية قرائية جديدة وصرامة منهجية وضبط مصطلحاتي الأمر الذي جعله لا يطمئن لمنهج واحد في مقاربته للنصوص على اعتبار أنه " لا يوجد منهج كامل مثالي لا يأتيه الضعف ولا النقص من بين يديه ولا من خلفه "[9]، فقضية اللا منهج ظهرت أول مرة في كتابه النص الأدبي من أين ؟ وإلى أين ؟ حيث قال : " بعبارة صغيرة ولكنها جامعة إنَ اللا منهج في تشريح النص الأدبي هو المنهج " [10] وقد لقى اللفظ ردود عديدة من لدن النقاد ،أما قصده بمفهوم اللا منهج هو اعتراضه على المنهج الجامد الذي يزيد النصَ النقدي غرابة وتعقيداً، بنفس النظرة والوعي المنهجي جعلت مرتاض يزاوج بين الحداثة والتراث فبمقدار ما هو حداثي فهو تراثي أيضاً فحداثته " لاتدعوا إلى القطيعة المعرفية ولا ترفض التراث، بل تدعو إلى إحياء هذا التراث ولكن قراءته بإجراءات جديدة وأدوات من المنهج حداثية لمحاولة ربط الحاضر بالماضي ولتأسيس نظرية نقدية قائمة على التواصل المعرفي ..."[11] فهو يحترم انتماءه ويتفاعل مع الأخر بوعي وليس بانبطاح وإملاءات، بهذا الوعي نهضَ بخطابنا النقدي عندما لا نطمئن للجاهز فتجربة مرتاض بما لها و ما عليها لا نستطيع إلا القول أن الرجل قدم من خلالها الكثير للنقد الجزائري من أجل نزع الحكم الجارف والنظرة السلبية عن النقد في الجزائر.

2.المنهج النقدي وإشكالية التوظيف:

إنَ الحديث عن المنهج وقضاياه لا يخلو من الصعوبة بمكان لارتباطه بالنظرية الأدبية وعصارة مفاهيمها وأفكارها هذا من جهة ومن جهة أخرى لارتباطه بالنصَ الإبداعي ومدى توفر أدواته الإجرائية وجهازه الاصطلاحي لمساءلة النصَ وتنفيذ مشروع خطاب نقدي جزائري مستقل وفق قراءة نقدية تحترم خصوصية النص المدروس

2. 1الإجراء النقدي:

إذا كان الإجراء بوصفه تعبيراً عن وجهة نظر نقدية معاصرة فالتحليل النقدي يشمل ميدان اختبار التصورات المنهجية فهو يسمح للباحث باتخاذ الخطوات المنهجية من خلال قراءة النصَ الأدبي قراءة نقدية فاحصة.

إنَ أهم ما تنطوي عليه إشكالية الإجراء هي قضية غلبة التنظير على الممارسة وهي مشكلة لا تقتصر على النقد الجزائري فقط بل عرفها النقد العربي من المحيط إلى الخليج في كتابات نقدية مثل النظرية البنائية في النقد الأدبي – صلاح فضل -

وزكريا ابراهيم في كتابه –مشكلة البنية- والناقد الجزائري أحمد يوسف في كتابه – السيمائيات الواصفة - بشير تاوريريت

و سامية راجح – التفكيكية في الخطاب النقدي المعاصر – نظرية النصَ الأدبي- لعبد المالك مرتاض -مقدمة في السيميائية السردية- لرشيد بن مالك وغيرها كثير والقضية راجعة بالدرجة الأولى إلى تعدد المفاهيم والمصطلحات وأساليب الممارسات ومن ثمة تباين الخلفيات والمنطلقات النظرية مما أخلط أوراق الناقد ونجد ذلك جليًا في النقد الأكاديمي الذي يعد حلقة من حلقات النقد الجزائري كون النقد الجزائري لم يغادر أسوار الجامعة إلا نادرا و من تداعيات هذه المسألة هو التأثير السلبي على سيرورة الخطاب النقدي فأصبح لا التنظير يخدم التطبيق ولا التطبيق يعكس سلامة النظرية وفعاليتها في العملية النقدية "غير أن إشكال التنظير والتطبيق بات يقض مضجع الخطاب النقدي، ويقسم ظهره ، لأنه أصبح عاريا من التطبيق الذي يضمن صلاحية التنظير ومشروعيته."[12]

فالمنهج هو وعي ينطلق من مفاهيم ومقولات لكن التنظير في غياب ممارسة جادة يبقى أعرج لأن الناقد أثناء مقاربته للنصوص لا مناص له من مفاهيم هذه النظرية ومصطلحاتها فالممارسة النقدية تدرجات يكمل بعضها البعض لصعود سلم النقد فنجد الروائي عبد الوهاب بن منصور يشخص الحالة بقوله :"يفترض بالنقد الأكاديمي أن يكون

منهجيا وعلميا وموضوعيا لكن الملاحظ هو أنه صار يتفنن في الحديث عن المناهج والنظريات النقدية ويغرق في طرح المصطلحات والمفاهيم بعيدا عن المنجز الإبداعي بمعنى أنه غرق في التنظير وابتعد عن التطبيق"[13] فإذا لم تفهم الأسس الفلسفية ولم تُدرك الجانب المعرفي لهذا المنهج أو ذاك فأنت ترهق فكرك وتتعب المتلقي وتظلم معك النص المدروس وهذا حسب رأي التشخيص المناسب لحالة النقد عندنا فمكمن الداء أننا نسينا النص وحضيرته الثقافية والفكرية وأصبحنا نلهث وراء المنهج فأفسدنا النص حتى عدنا لانفرق بين دراسة سيمائية مثلا لنصوص بن هدوقة أو الطاهر وطار أو غيرها.

3."رشيد بن مالك " التجربة السيميائية من التنظير إلى التطبيق:

يعتبر الأستاذ "رشيد بن مالك" من بين النقاد والدارسين الأكثر إلماماً بالدرس السيميائي فمعظم أعماله من كتب وأوراق بحثية تندرج ضمن الحقل السيميائي بوصفه خياراً منهجيا، فقد درس وتتلمذ على أيدي أقطاب مدرسة باريس وحضر دروس "غريماس" نفسه صاحب هذه النظرية (السيميائية السردية)، حيث اشتغل على ترجمة بعض كتب السيميائيين الغربيين، وذلك ضمن استراتيجية معينة المبتغى منها فك ألغام الفوضى والخلط المنهجي والمشقة الكبيرة التي تُصعّب على القارئ الفهم وعلى الباحث الممارسة .

3. 1"مقدمة في السيميائية السردية" في الميزان النقدي:

من بين الكتب المهمة التي اهتمت بمقاربة النصوص السردية من منظور سيميائي حيث عمد الباحث من خلاله إلى تبسيط المفاهيم النظرية والمنهجية والتعريف بالقواعد والآليات التطبيقية للمنهج السيميائي، ورد النظرية السيميائية إلى أصولها و أسسها التي تقوم عليها في بناء المفاهيم العلمية والإجراءات التحليلية. فقسم كتابه إلى قسمين: قسم نظري وآخر تطبيقي.

أ-القسم النظري:

هي مقدمة منهجية حدّد فيها الناقد الأصول المعرفية للنظرية السيميائية السردية انطلاقا من المدرسة الشكلانية وأهم روافدها اللسانية حيث يقول في مستهل دراسته: "سنسعى في هذا البحث إلى دراسة الأصول اللسانية والشكلانية التي انبنت عليها النظرية السيميائية(مدرسة باريس) واستمدت منها مصطلحيتها العلمية مع إجراء تعديلات على مفاهيمها تقصيا في ذلك الانسجام مع التوجهات الجديدة للبحث السيميائي المعاصر"[14]

ونقصد هنا ذلك الدّعم المنهجي الذي قدمته اللسانيات للمنهج السيميائي والمتمثل في مبدأ المحايثة و مبدأ الاختلاف(سوسير وهيلمسليف)، الملفوظ السّردي والكفاءة والأداء(تشومسكي)، كما تطرق إلى آلية التحليل السيميائي وهي المربع السيميائي،هذه الأصول التي كانت بمثابة دعامة أساسية للسّيميائيات (السيميائية السّردية)

وقد غلبت على القسم النظري من الكتاب النظرة الفلسفية العميقة والدقة والعلمية في طرح المادة المعرفية ومراعاة الطريقة التي تم بها نقل هذه المبادئ من حقل اللسانيات إلى حقل السّيميائيات.

أما الجزء الثاني من هذا القسم فقد خصصه للحديث عن الأصول الشكلانية باعتبارها خلفية معرفية مهمة في الدرس السّيميائي، حيث رصد توجه الشكلانيون الروس العام ونظرتهم للممارسة النقدية على النص الأدبي، ثم تحدث عن النموذج البروبي باعتباره الباحث الوحيد الذي درس الحكاية من خلال كتابه

(مورفولوجية الحكاية Morphologie du conte)، ثم قيّد الانتقادات التي وجهها إليه "غريماس" وبناءً عليها قدم مشروعه السّيميائي السّرديّ لفهم النصوص السّرديّة[15]

بهذا يكون الناقد "رشيد بن مالك " قد أولى أهمية قصوى للأصول المعرفية والعلمية والمنطلقات الفكرية والفلسفية للمنهج السيميائي محاولا التأصيل والتأسيس للنّقد السّيميائي، فقد أكد ذلك في نهاية هذا القسم النظري بقوله: " حاولنا أن نثير في هذا البحث بعض القضايا اللسانية والشكلانية على نحو يفضي بنا إلى رؤية تحليلية كاشفة عن مجموعة من القواعد الخلفية للنظرية السّيميائية."[16]، وهي تنم عن وعي الباحث بضرورة التأصيل من أجل تسهيل سُبل استيعاب النظرية السّيميائية.

ب-القسم التطبيقي:

في هذا القسم قام الباحث "رشيد بن مالك" بقراءة ثلاثة نصوص سردية وتمثل هذه القراءة الجانب التطبيقي للكتاب حيث يقدم الكاتب مقاربة لنص القصة القصيرة وهذه النّصوص وهي:

-قراءة سيميائية في قصة (العروس) للروائي غسان كنفاني

-قراءة سيميائية لقصة (عائشة) لأحمد رضا حوحو

-سيميائية الفضاء في رواية ريح الجنوب لعبد الحميد بن هدوقة

الملاحظ على النماذج المقترحة للتحليل أنها بدأت بمقدمات منهجية فمثلا مقدمة النموذج الأول حدد أسباب اختياره للقصة وضبط الإطار الذي تندرج ضمنه مقاربته ويواصل تأكيده على ضرورة معرفة الأصول النظرية وضبط أسس القراءة وتوجهاتها يقوله: " ضمن هذا الإطار المنهجي تندرج دراستنا التطبيقية التي لا تعدو أن تكون مجرد قراءة لا تنفي إمكانات قراءات أخرى، لكنها قراءة تحاول اكتناه التمفصلات الأساسية للنص استناداً إلى الهيئة التلفظية المؤسسة للفاعل، والقنوات التي يمرر عبرها مضامينه".[17]،

و هـذه العملية ضـرورية ومهمة في تحليل الخطاب السّردي في نظر الباحث من أجل معرفة استراتيجيات الصّراع التي تجسدها البرامج السّردية ومفهوم البرنامج السّردي هو : " تتابع الحالات وتحولاتها المتسلسلة على أساس العلاقة بين الفاعل والموضوع وتحولها، إنه التحقيق الخصوصي للمقطوعة السردية في حكاية معطاة"[18] كما يتم من خلالها أيضا ضبط الدورة الدلالية للقصة.

ولتحقيق ذلك لجأ الباحث إلى تقطيع هذه القصّة إلى مقطوعتين اثنتين: تحمل الأولى شكل رسالة يوجهها الراوي باعتباره الأنا المتكلم إلى الأنت رياض: "ابحث معي **حيث أنت** عن رجل طويل جدا، صلب جدا، لا أعرف اسمه، ولكنه يلبس خاكية عتيقة ويلوح لأول وهلة كأنه مجنون"[19]

انطلاقا من هذا الملفوظ الرئيسي الذي يعدُ في التعبير السّردي السيميائي وظيفة اتصال فيحتل الراوي مكانة المرسل في برنامج سرديّ وتُوكل مهمة الإنجاز لرياض باعتباره ذات فاعلة سعيا لتحقيق موضوع القيمة وهو البحث عن الرجل.

المرسل: الرّاوي ⟵ الفاعل: رياض ⟵ موضوع القيمة: البحث عن الرّجل

(البرنامج السّردي)

لم تصل الذات الفاعلة (رياض) إلى موضوع قيمتها (البحث عن الرجل) بسبب عدم معرفة رياض اسم هذا الرجل النكرة فهو يعرف عنه مظهره الخارجيّ فقط.

أما تحليل المقطوعة الثانية فقد ركز الباحث على التحول الذي حصل على مستوى الأحداث، حيث يسرد الراوي قصته كاملة والتي يبرز من خلالها عن فشله في إدراك موضوع القيمة ، وإصابته بالجنون جراء ذلك، وقد كان هدفه من ذلك إقناع رياض بدوره كفاعل في التحري عن الرجل.

ما يميز تحليل الباحث هو قدرته على ضبط الدورة الدلالية من خلال مسارين يتمثل الأول في ضعف الراوي وشعوره بالعجز للوصول إلى موضوع القيمة(البحث عن الرجل)، أما المسار الثاني فيتمثل في إصابة الرجل بالإحباط نتيجة فشله في تحقيق هدفه "...فولدت هذه الوضعية عند الراوي شعورا بالنقص أبدى استعدادا لتعويضه بتوجيه الدعوة إلى رياض للتحري عن رجل ينتابه إحساس بأنه يبحث عن بندقية تتمازج مع العروس فتتوحد قيم الموت والحياة توحدا يحدث حالة تناقض قصوي تتحكم في سلوك المواطن الفلسطيني".[20]

بعد ذلك تأتي المقاربة الثانية (عائشة) التي ركز في مقدمتها المنهجية إلى مكانة البحوث السيميائية وقضية المصطلح والفوضى التي تكتنفه والاضطراب الذي يطال الترجمة في الخطاب السيميائي المعاصر ".. نلاحظ بوضوح أن ترجمة المصطلح في الخطاب السيميائي المعاصر تتسم بالاضطراب الذي يحول دون بث وتلقي الرسالة العلمية ويؤدي في جميع الحالات إلى نسف الأسس التي ينبغي أن يبنى عليها التواصل العلمي"[21].

والمقاربة الثانية لا تختلف عن الأولى من حيث الهدف الأساسي وهو ضبط الدورة الدلالية للنص السردي و لا من حيث تقديم المفاهيم السيميائية السردية(المنهج)، ولا من حيث التقطيع حيث قطع النص إلى مقطوعتين أساسيتين الأولى (الخطاب الموضوعي) عرض على القارئ طرفين أساسيين في علاقة تتسم بطابع جدلي: المرأة/ المجتمع، ورأى الباحث أن الراوي في بداية القصة قدم المرأة على أنها تعيش الظلم داخل المجتمع الجزائري وهذا راجع للمجتمع كفاعل جماعي نجح في إقصاء المرأة واستحضر الملفوظ الآتي: " ولا تتحرك ولا تسكن إلا بإرادتهم ووفقا لرغباتهم"[22]،أما المقطوعة الثانية (الخطاب السردي) فقد استهلها بوضع عائشة الهادئ في القرية لكن الوضع تغير بمجيء قوة معاكسة (الشاب العائد من أوروبا) حيث حاول الناقد إبراز الآلية التي تحكم البنية السردية للقصة بتحديد العلاقة بين الفاعل وموضوع القيمة.

فاستدعى الناقد الملفوظ الآتي:" وهكذا تتابع أيام عائشة في قريتها إلى أن حدث الحادث الجليل الذي خرج بها عن المألوف(...) شاب من أبناء القرية عاد من أوروبا وأعجبت الفتاة كما أعجبت غيرها بهذا الشاب"[23] واستخلص الناقد إلى أن الفعل الإغوائي الذي مارسه الشاب عل الفاعل الذي يرغب في معرفة الآخر (الغرب)، وأوضح أيضا أن الشاب احتل

موقع المرسل ليحرك عائشة لتحقيق البرنامج الأساسي وهو التحرر عن طريق الفرار الذي هو برنامج ملحق لهذا التحرر الذي لا يتحقق إلا بالسفر إلى أوروبا.

بعدها أعاد الناقد النظر في الدورة الدلالية للنص، حيث رأى أن عائشة سعت للخروج من منطق الثابت والدخول في منطق المتحول الحامل لقيم تعمل على ضمان حقوقها ورأى أنها في نهاية هذا الصدام العنيف استطاعت أن تدخل في وصلة قيم جديدة تعيد لها الاعتبار.

فالقصة قامت على الثنائيات التقابلية :الماضي/الحاضر ، الثابت /المتحول ،رجال /نساء... ، كما تميزت بوجود بنيات أساسية تقوم عليها وهي: بنية خطابية وبنية سردية وبنية دلالية وهي أساس المنهج السيميائي السرديَ ودعامته.

وفي ختام التحليل رأى الناقد بأن هناك ضرورة ملحة لإحداث قطيعة جذرية مع العالم المتخلف، وأن المواقع الاستراتيجية للفاعل الجماعي (المجتمع) فشلت في تثبيت الفعل الوراثي من أجل المحافظة على نظام يقصى الآخر (المرأة).

أما رواية "ريح الجنوب" فقد خصصها للحديث عن سيميائية الفضاء باعتبارها مكوناً سردياً حيث قدم في البداية نظرة السيميائية للفضاء على أساس مركب بين التعبير والمضمون مثل تركيب الكلام، بناءً على هذا المفهوم استندت دراسة الناقد لفضاءين مركزيين في النص هما : القرية والمدينة يقول :"تستند دراستنا إلى هذه القاعدة النظرية التي سنفحص من خلالها التحويلات الدلالية المحورية لفضاءين نفترض أنهما مركزيان في النص: القرية والمدينة".[24]

يبدأ الناقد الحديث عن الوضع النفسي الصعب جراء نتيجة عدم التأقلم مع واقع القرية المؤلم والحزين" القنابل الذرية التي يتحدثون عنها لا تستطيع أن تجعل مكانا أشد خرباً من هذه القرية"[25] ، فالمكان عنصر حكائي له دلالته الواقعية التي ينهض بها داخل النص فهو الأرضية التي تحرك الشخصيات داخل الرواية فالضياع النفسي الذي عاشته الشخصية في هذا المقطع السردي راجع إلى المكان وطبيعته(القرية) حيث قدم لنا الناقد مجموعة من الصور النفسية الدالة على الحالة الضياع وعلى الواقع المأساوي للقرية: الغربة ، الصمت، الخراب، المنفى، القبور،....هذا الفضاء الذي هو نقيض الرغبة في الاستراحة والتي تمثل البرنامج السردي (قضاء العطلة) ، ثم تزداد حالة "نفيسة" النفسية سوءً نتيجة حاجز المنع من الخروج والعزل عن العالم الخارجي " إن أمي تمنعني من الخروج

من هنا ... في هذه القرية الخالية بينما في الجزائر في كل خطوة رجل، أخرج دون أن ينكر علي أحد ذلك، فلماذا الخروج هنا عيب وهناك لا ؟"[26] وهنا يربط الناقد في توزيعه الفضائي بين الرجل والمرأة إلى مبدأ القيم وكل تغير في الفضاء يستلزم تغيرا في القيم يقول الناقد: " وينبغي أن نفهم أن انتقال نفيسة من المدينة (الجزائر) إلي القرية بأنه انتقال من نظام إلى نظام مغاير "[27]،

ثم يتناول الناقد الفعل الذي يُمارس في الفضاء عن طريق الذات الفاعلة فعابد القاضي الذي يحاول تنفيذ برنامجه (تزويج ابنته نفيسة من مالك) وذلك من خلال الملفوظ الآتي: " أنا قررت أن تتزوج وقراري قضاء" [28]، هذا البرنامج ما هو إلا برنامج جزئي لتحقيق برنامج سرديَ أهم وهو حماية أراضيه من قانون الإصلاح الزراعي لأن الصهر شيخ البلدية وهذا البرنامج السردي لا يختلف كثيرا عن المقاربة السابقة .

هذا الوضع المتأزم يزيد إصرار "نفيسة" على رفض هذه القيم التي تُكبل حريتها أكثر فأكثر في فضاء القرية المنتهك لحرية المرأة، وما كان منها إلا التفكير في الفرار الذي يعدُ مخرجا لهذا الوضع المتأزم في القرية " الفرار هو الحل"[29]

نشير إلي أن الناقد قد طبق البرنامج السَردي عند "غريماس" بحذافيره من خلال هذا التحليل والمتمثل في العلاقات الثلاث:[30]:

1- علاقة الرغبة(Relation de désir):

وتجمع بين من يرغب (الفاعل) الذي هو عابد القاضي وما هو مرغوب فيه(الموضوع) والذي هو تزويج ابنته وتمثل المحور الذي يرتكز عليه النموذج العاملي.

2- علاقة التواصل(Relation de communication):

كلُ رغبة من ذات الحالة وراءها محرك أو دافع وهو هنا حماية أرضي عابد من قانو الإصلاح الزراعي ،وعلاقة التواصل تمر حتما عبر علاقة الفاعل بالموضوع (علاقة الرغبة).

3-علاقة الصراع(Relation de lutte):

وضمن هذه العلاقة يتعارض عاملان المساعد والمعارض، الأول يقف إلى جانب الفاعل والثاني يعمل على عرقلة جهوده في الحصول على الموضوع وهنا الصراع بين عابد ونفيسة أي بين قيم المدينة وقيم القرية.

وتأسيساً على ما تقدم يمكن القول أن الجانب النظري في الكتاب كان يقارب إلى درجة كبيرة الجانب التطبيقي هذا الأخير الذي لم يلتزم فيه الناقد كثيراً بمبدأ المحايثة الذي يدعوا إليه المنهج السيميائي فالباحث لم يتتبع كل آليات التحليل السيميائي للخطاب السردي كما وضعها غريماس بل انتقى منها ما يناسب نصه العربي وهذا ينم عن وعى الباحث والمعرفة التامة بالمنهج فلا يخضع نصه للمفاهيم النظرية والأدوات الإجرائية لصقاً بل يراعي خصوصية النص المقارب ليستثمره في إثراء المفاهيم وتبيان الجماليات ويبعده عن التطبيق الآلي الجاف والملفت للنظر أيضاً الصرامة المنهجية في ضبط المصطلح والإلمام به من خلال التصور النظري الواضح الذي انعكس على الجانب التطبيقي. حيث تجاوز الطرح الكلاسيكي لمقاربة النصوص الإبداعية فأثبت فاعليته الإجرائية تنظيراً وتحليلاً لمختلف الخطابات السردية.

4.خاتمة:

إنَ النقد الجزائري وعبر كل محطاته التي مرَ بها لم يتوقف عند منهج بعينه بل تدرج من مدرسة إلى أخرى ، هذا التنقل وهذه الحركية تمخض عنها مشهد نقدي جزائري حاول نقاده جاهدين التأسيس لمدرسة نقدية جزائرية متفردة رغم ما جابهتها من صعوبات، ومن خلال هذا البحث البسيط نسجل المخرجات التالية:

1-عرف الخطاب النقدي الجزائري سوء تسير بخصوص المنهج المستورد لعدم الضبط والاستقبال اللا مشروط والقفز من منهج لآخر دون وعي أفسد عملية الممارسة لفترة معينة.

2-قدرة بعض النقاد البارزين على تقديم الإضافة أمثال : عبد المالك مرتاض ورشيد بن مالك وغيرهم كونهم استثمروا المعطيات النقدية الغربية بوعي ويظهر ذلك في مصنفاتهم من خلال التأصيل والفهم الجيد للنظرية، فالتأسيس لخطاب نقدي واعد.

3-مسألة غلبة التنظير على التطبيق لم تقتصر على النقد الجزائري فقط بل حالة مرضية ميزت النقد العربي وذلك راجع لتدفق المناهج الغربية دفعة واحدة خصوصا عندنا نتيجة الوضع السياسي والثقافي الذي مرت به الجزائر مقارنة بالدول العربية الأخرى.

4- استطاع الباحث "رشيد بن مالك" من خلال مقاربته للنص الروائي من منظور سيميائي إلى تقريب المنهج من القارئ لأنه لم يوظف المنهج السيميائي بمعزل عن السياق العام

للنصّ الجزائري فكانت له القدرة على تكييف النظرية وتطويع أدواتها بما يتلاءم وخصوصية النصّ المقارب .

وتبقي التجربة النقدية الجزائرية المعاصرة تتلمس طريقها نحو التطور والتأصيل النقدي من حيث المفاهيم والنظرية ومن ناحية اختيار الآليات والأدوات التي تناسب النصّ الجزائري العربي ، فلا بُدَّ لنا مراعاة الظروف التي تمخضت عنها هذه التجربة ولا نقسوا بالأحكام السّلبية التي نراها في بعض الأوراق البحثية ونتجاوز مرحلة الشعور بالنّقصّ والدونية اتجاه الآخر.

5. الهوامش:

1الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع،ط1 بيروت لبنان،1994،ص538-539

2الحلو عبده: معجم المصطلحات الفلسفية فرنسي-عربي، المركز التربوي مكتبة لبنان ،ط1،بيروت لبنان،1994، ص172

3Larous،DicttionnairreencyclopédgiquelarousselibairielaroussekLibairielarousse،.paris 6873 p, .(1981)

4عقاق قادة: الخطاب السيميائي في النقد المغاربي، دار الألمعية للنشر والتوزيع ،ط1، الجزائر،2014،ص66

5يقطين سعيد :الأدب والمؤسسة والسلطة (نحو ممارسة أدبية جديدة)، المركز الثقافي العرب ط1بيروت- الدار البيضاء ، لبنان المغرب،2002،ص68

6زعموش عمار: *النقد الأدب المعاصر في الجزائر-قضاياه واتجاهاته* مطبوعات جامعة منتوري(د ط) قسنطينة، الجزائر،2001 ص74.

7عقاق قادة،: الخطاب السيميائي في النقد المغاربي،ص127

8الدغمومي محمد،: *نقد النقد وتنظيرات النقد العربي المعاصر*، منشورات كلية الآداب،ط1،الرباط، المغرب،1999،ص884

9عبد المالك مرتاض: *تحليل الخطاب السردي* ،ديوان المطبوعات الجامعية،ط1 ،الجزائر،1995،ص06

10عبد المالك مرتاض: *النص الأدبي من أين؟ وإلى أين؟* ديوان المطبوعات الجامعية،(د ط) الجزائر،1983،ص55

11عبد المالك مرتاض: *الكتابة من موقع العدم (مساءلات حول نظرية الكتابة)*. دار الغرب للنشر والتوزيع وهران الجزائر،2003،

12أحمد يوسف: القراءة النسقية - سلطة البنية ووهم المحايثة - منشورات الاختلاف - الدار العربية للعلوم-ناشرون، ط1،الجزائر- بيروت، الجزائر – لبنان،2007،ص540

13-عبد الوهاب منصور: النقد الأكاديمي والنص الأدبي، جريدة النصر،الجزائر،01ديسمبر2014، ص15

14 بن مالك رشيد: مقدمة في السيميائية السردية، دار القصبة للنشر (دط)، الجزائر، 2000، ص05

15 ينظر: المرجع السابق ص28 35

16 المرجع نفسه: ص35 36

17بن مالك رشيد: مقدمة في السيميائية السردية، ،ص51

18 بن مالك رشيد: قاموس مصطلحات التحليل السيميائي للنصوص ،دار الحكمة (د ط) الجزائر، 2000، ص148

19 كنفاني غسان: عالم ليس منا، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت لبنان ، 1980، ص151.

20 بن مالك رشيد: مقدمة في السيميائية السردية: ص66

21بن مالك رشيد،: مقدمة في السيميائية السردية ،ص72

22 أحمد رضا حوحو: غادة أم القرى وقصص أخرى، قصة عائشة، موفم للنشر، الجزائر، ط2، 2000، ص195 عن المصدر السابق: ص75

23 المرجع السابق: ص196-197 عن المصدر السابق: ص76

24 بن مالك رشيد،: مقدمة في السيميائية السردية، ص97

25 عبد الحميد بن هدوقة: ريح الجنوب ،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر، 1976، ص08

26 المرجع السابق: ص 38 نقلا عن المصدر السابق: ص98

27 بن مالك رشيد: مقدمة في السيميائية السردية، ص99

28 أحمد رضا حوحو: غادة أم القرى وقصص أخرى، قصة عائشة، ص90

29 المرجع نفسه: ص 218

30 حميد لحمداني: بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، ط01، بيروت لبنان، 1991 ص33 -36